المقدمة

بقلم الأستاذ الكبير

عباس محمود العقاد

صاحب هذا الديوان نسيج وحده فى شعرنا العربى الحديث ونحن نردّ هذه الصفة إلى معناها حين نقول عن صديقنا الراحل إنه نسيج وحده . فإنها كلمة تكررت فى طائفة من كتب الأقدمين حتى فقدت معناها . إذ يكتبون عن عشرين فى عصر واحد فيقولون عن كل منهم إنه كان نسيج وحده ، ولا يصح على هذه الصفة أن يكون نسيج وحده حقا بمعنى التفرد وانقطاع النظير ، وإنما يراد بالكلمة مجرد المدح على إطلاقه ، أو يراد بها قلة الأمثال مع التميز بالثناء ، وأما الذى نعنيه حين نصف شاعرنا بهذه الصفة فهو أنه كان فى منهجه فرداً لم يتكرر على مثاله ، وأنه كان فى مصر « مدرسة الشريف الرضى » بغير مماثل ، أو مقارب ، فى أسلوبه ومنحاه .

كان صديقنا وصديقه « المازنى » رحمه الله يقرأ الشريف الرضى ويعجب به كأعجابه ، وكان أسلوب الشريف ينطبع فى قريحته فيبدو على غير قصد منه فى نظم عباراته وتراكيبه ، ولكن

« المازنى » كان يقرأ الشريف ويعيد قراءته فى أيام كثرت فيها قراءته للشعراء المختلفين من الأوربيين ، فامتزجت آثار هذه القراءات ولم تجتمع كلها على النمط الشرقى المعهود ، واجتمعت آثار القراءة والإعجاب كلها - أو كادت - فى أسلوب « على شوقى » مع استقلاله بلفظه ومعناه ، فكان تجديداً للشريف الرضى ولم يكن تكراراً له بغير جديد .

وكانت نشأة « على شوقى » مرحلة واسعة فى تجديد حياة « الأدب السلفى » المأثور ، لأنها مرحلة تتضح فيها الملامح والسمات ، وتتجلى فيها أنماط الشعر والنثر على حسب المدارس والأعلام ، فلا تختلط فيها مدرسة البحترى ومدرسة أبى الطيب ، ولا تلتبس فيها ملامح ابن المعتز وملامح ابن هانىء ، ولا يخفى بين مأثوراتها أسلوب فريد بين شتى الأساليب .

أما قبل هذه المرحلة فقد كان « تقليد » يعجز حتى عن المحاكاة بل يعجز حتى مع المحاكاة عن نقل الملامح والدلالة على « المحكيين » من أعلام الشعراء الأقدمين .

كانت مرحلة التقليد « الآلى » الذى لا حياة فيه ، وتليها مرحلة التقليد الذى يحاول المحاكاة ولا يستطيعها ، بل ينقل الصورة كما ينقل الطفل ما يحكيه من الرسوم أو الشخوص : شىء يدل على العين وشىء يدل على الذراعين وشىء يدل على القدمين ، ولا شىء من الصورة المميزة وراء هذه الأشياء .

أما المرحلة التى وثب بها شاعرنا وثبته الحية فى طريق التجديد .. فقد كانت مرحلة تتخطى مرحلة التقليد و مرحلة المحاكاة : كانت مرحلة البعث الجديد فى صورة من صور الحياة.

إقرأه وهو يقول فى مقاصد « الفخر الحكيم » أو فى الحكمة الفاخرة التى اشتهر بها الشريف :

وما راقنى الوعد من صاحبٍ ولا راعنى من عدوّ وعيد
وبتُّ من الناس فى راحة سواء قريبهمُ والبعيد
أعيش كما عاش ليث الشرى وحيداً ، وهل ذل ليث وحيد ؟
يروح ويغدو على قوته ويكفيه من قوته ما يصيد
أسير الحياة طريد المنا تِ . ألا فاعجبوا للأسير الطريد
وإن يك قد زيد فى عمره فآية نقصانه أن يزيد
ولولا تكاليف هذى الحيا ة ، لما سئم العيش فيها لبيد

أو يقول فى هذا الفخر :

وما أنا إلا البدر عاق سفوره خسوف ولكن لم يعقه عن السير

أو اقرأه وهو يقول فى النصيحة :

ولا تيأسنْ من رحمة الله واثقْ فإنّ قنوط العاقلين جنون
وإن لم يكن خطب ففيم تجلّد ؟ وإن لم تكن حرب ففيم حصون ؟

أو يقول فى الأمثال الحكيمة :

ربّ بؤس ذكره ينعشنى ونعيم ذكره يفزعنى

أو يقول فيها :

إن شاب رأس الفتى شابت جهالته وكيف يدرك شيئا مر وهو صبى؟

واقرأه وهو يقول فى الغزل العفيف :

وأعذر أهل العذل ثم ألومهم وأحرى بعذر العاشقين اللوائم

ومن كان مثلى يعشق النفس حرة قضى وهو عن كل الخبائث صائم

أو اقرأه وهو يقول فى الشكوى مع الأنفة :

وما التبرم بالأيام من خلقى ولا الشكاة لغير الله من دينى

لكنها زفرة تهتها زمنا طمعت فقلت لها مستيئسا بينى

واقرأ غير هذه الأبيات فى غير هذه الأبواب ، فانك لا تحس أنك تقرأ نسخة مكررة من الشريف ولكنك تحس كأنه رضى الله عنه قد عاد إلى الحياة ليقول فيها الشعر كما يقوله شاعر القرن العشرين .

ولهذا ترى فى هذا الديوان أبياتا لا تنتظرها من الشريف لأنها من غير نمطه فى الفكاهة أو السخرية أو التشبيه أو المحسنات الفنية .

فشاعرنا العصرى « على شوقى » هو الذى يقول عن كذبة إبريل :

فى شهر إبريل أباحوا كذبة وكأنهم صدقوا طوال العام

وهو الذى يجيب صديقه «عمادا» حين سمع منه لومه المدخنين ، وليس منهم « عماد » ، فقال معتذرا للتدخين !

طويت صدرى على هموم وعيل صبرى بما أدارى

وقد تخذت الدخان سترا لكى أوارى به أوارى

فلا تلمنى بغير علم فلا دخان بغير نار

وعلى شوقى هو الذى يقول عن البدر:

من عاذرى والشيب أضحى عاذلى وضحاه ظل الشباب القشعم
وستى المشيب بمفرقى مترجم عن نار وجد فى الحشا تتضرم
كالشمس تغرب ثم يبدو نورها فى البدر ليلا وهو جسم مظلم

وهو الذى يقول فى قصر الليل:

ربّ ليل مرّ لم نشعر به ثم الصبح به خد الشفق
فكأن الحبّ لما زارنى غار ضوء الصبح منه فانفلق

وهو الذى يقول مجانسا:

وأقسمت لى بالحب أن لست تاركى فما لك فى هذى اليمين تمين

وهو الذى يقول مجانسا بين الجوى والجواب:

أكذا يكون تعتّب الأحباب يا نائيا بعث الجوى بجواب ؟

فإذا قيل إن صاحب هذا الديوان « نسيج وحده » بمصر فى مدرسة « الرضى » فهى صفة لا تطوى قريحته فى قريحة شاعر آخر كائنا ما كان شأنه من العظمة والإجادة ، ولكنها عنوان مدرسة من مدارس البلاغة تبرز من ورائه هذه الشاعرية العصرية بكل ما تأصّل فيها من سليقة وكل ما كسبته من ذخيرة الدرس والإطلاع ، ومنها فنون المحسنات التى لم تكن من نمط الشريف ولكنها نمط أولع به شاعرنا زمنا لأنه أثر طبيعى ، لدراسته فى نشأته ، فكان فيه

« مطبوعا » كأحسن ما يكون الشاعر المطبوع حين يتخذ هذه المحاسن المصنوعة حلية للتعبير الصادق الصحيح .

* * *

ولا ننس فى سياق الأشارة إلى المحسنات أنها كانت « طبيعته » فى الزمن الذى بعثت فيه آداب السلف وكثرت فيه مدارسة الفنون البلاغية على أنواعها بين مقبول ومنبوذ حتى استقام الذوق فيها على هداه . وإن الذين ينكرون هذه المحسنات على إطلاقها لمقلدون فى تقدمهم كأولئك الذين يتقبلونها ويتهافتون على محاكاتها بغير تفرقة بين الجيد منها والردىء وبين الحسن منها والذميم . فأنها ، فى الحق ، لغو يعاب إذا ضاع من ورائه المعنى وزاغ الناظم فى سبيلها عن سواء الحس والشعور ، ولكنها حلية جميلة إذا اجتمعت مع المعنى الصادق والشعور القويم ، وكذلك كانت حلية شاعرنا فى لفظه كلما اصطنعها فى القليل من أبياته على ما رأينا فيما تقدم . ونحن الذين عرفنا الشاعر وعرفنا بعض من يناجيهم من أحبائه لا نذيع سرا إذا قلنا إنه كان يؤثر المحسنات فيما ينشدهم من شعره ، لأنهم كانوا يطربون لها ويستزيدون الشاعر منها ويعجبهم أن يبدع فيها كأبداع النابغين من أصحاب هذه الصناعة فى زمانها ، وما نحسبه كان يطاوع السليقة المطبوعة حقا لو أنه قرأ كل ماقرأه من فنون المحسنات ، وعاشر من عاشرهم من محبيها ومن رواتها ثم خلا منها

شعره كأنه لم يسمع بها ولم يُفتن فى يوم من الأيام بفتنتها .

ولقد كان شاعرنا يطلع على الكثير من آداب السلف المنتقاة ، وكان يكسب ما يكسب من ثمار تلك المطالعات ، ولكنه كان ابن عصره فى مكسوبه وموهوبه على السواء ، وليس أدلّ من ذلك على الأصالة والاستقلال .

كان ابن عصره عصر مشكلة الثروة والفقر إذ يقول :

ذو الفقر محسوب عليه ذو الغنى ... والمحل محسوب عليه الماطر
عارٌ على ذي المال يحجر ماله ... وأخوه محتاج لما هو حاجر
كالنار تحت القدر تأكل نفسها ... ويريقها يعشو إليه الناظر

وهو ابن عصره عصر مجلس الأمن والمحنة الصهيونية إذ يقول :

أقاموا مجلسا للأمن يدعو ... إلى السلم المكبّل بالقيود
تولّى كِبْرَه السفهاء منهم ... وغصّ بكل شيطان مريد
إذا اجتمعوا على أمر مريج ... تواصوا بالضغائن والحقود
وليس السلم بغيتهم ولكن ... دهتهم صولة الخصم العنيد

إلى أن يقول :

ومن كان اليهود له وليّا ... فبشره بخذلانٍ أكيد

بل هو ابن عصره حين يصف جمال الطبيعة فى معارض الزهر كما وصفها الأقدمون فى الرياض والبساتين ، وهو القائل فى معرض الربيع :

ومعرض أقيم الأزاهر لمتعة الأنظار والخواطر
تحيّر الجمالُ فى أبهائه وشاعت البهجة فى أرجائه
فوردة حمراء كالدهان تزرى على شقائق النعمان
ووردة كوجنة العذراء مشربة بحمرة الحياء
ووردة تكمن فى بُرعومها مثل فم الحسناء فى وجومها
أما الأزاهير فما أحلاها إن أنسَ من شىء فلن أنساها
كلّ لها من ذاتها عبير وما لها فى حسنها نظير
فكم ترى من زهرة زرقاء كأنها قدّت من السماء
وزهرة صفراء كالدينار كأنّ فيها قبسا من نار
وزهرة منظرها عجيب كهامةٍ توّجها المشيب
وزهرة يغمرها الضياء كأنها لؤلؤة بيضاء
وزهرة بيّنة الشحوب كالشمس إذ تؤذن للغروب
وزهرات كالعيون الحالمة وزهرات كالثغور الباسمة
وزهرات كالعيون النجل قد غنيت بحسنها عن كحل
وزهرات كنهود الغيد تهزّهن زفرة التنهيد
وزهرات كالقلوب الواجفة كأنها من الذبول خائفة

يستطرد الشاعر من الوصف إلى العبرة فيقول بعد وصف الأزهار التى لها رونق وليس لها أريج والتى لها أريج وليس لها رونق — إنها كالدنيا والناس :

وهكذا الدنيا وهذى حالها كما ترى فلا تقل ما بالها

فكم بها من فاضل فقير وجاهل يرفل فى الحرير

لحكمة يعلمها الحكيم وهو بكل خلقه عليم

فلينظر الإنسان مم خلقا فى هذه الدنيا وكيف رزقا

تلك هى « العصرية السلفية » أو « السلفية العصرية » التى كان بها شاعرنا صاحب هذا الديوان نسيج وحده فى نهضة الإحياء العربية ، وكان خليقا بديوانه أن يشغل بين الدواوين المنشورة مكانه الذى لا يغنى عنه غيره ، ولكنه حيل بينه وبين الظهور فى حياة صاحبه فهو الآن يجد سبيله إلى قراء الشعر بعناية المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، ومن أوائل أغراضه أن ييسر نشر الشعر الذى لا يتيسر نشره بغير عنايته ووصاته . وإننا ليسعدنا — إذ نقدم هذا الديوان — أننا نؤدى به واجب الوفاء للتراث العربى العريق كما نؤديه لذكرى زميل صديق ؟

عباس محمود العقاد